الفروق السيكلوجية
بين الأفراد
للأستاذ عبد العزيز عبد المجيد

العلاقة بين الذكاء والخلق

الشخصية من الموضوعات التي اهتم بدراستها علماء النفس منذ أوائل القرن الحالي . وقد ذهبوا في تحليلها إلى أنها تتكون من عوامل بعضها فيزيولوجي ، وبعضها كيميائي ، وبعضها عقلي ، وبعضها خلقي ومزاجي . وقالوا إن نتيجة تفاعل هذه العوامل المختلفة تحت تأثير البيئة التي يعيش فيها الفرد هي التي تكون شخصيته . ومعنى ذلك أنه توجد علاقات فعالة بين كل مجموعة من هذه العوامل وبين بقية المجموعات الأخرى . وسأعالج في هذا الحديث موضوع العلاقة بين الذكاء والخلق ، وأثر هذه العلاقة في حياة الفرد

إن قارئاً أو ملاحظاً ليتعسر عليه — من غير دراسة وإحصاء — أن يجزم بوجود تلازم بين الذكاء والخلق الكريم ، أو العكس ؛ أي بين الذكاء والخلق السيء أو الغباء والخلق الكريم . لأن الملاحظة العادية تدل على أنه يوجد بين الأذكياء ، كما يوجد بين الأغبياء ، الشرير والمتمرد وكريم الخلق والوديع ، وإن كانت بعض الروايات[1] والأفلام تظهر شخصيات المجرمين والمحتالين في مظهر الأذكياء والعبقريين . وقديماً كان الإغريق يبيحون السرقة لأنها آية الذكاء ، وكانوا يعاقبون من يقبض عليه سارقاً ، أو تثبت عليه التهمة ، لأنه غبي لم يستطع أن يفعل فعلته بمهارة ودهاء ، فيفلت من أعين الرقباء ، شأن الذكي الماهر

والذكاء — ولا شك — عامل من عوامل النجاح في الحياة فهو الذي يعين الطالب في حياته الدراسية ، والمحامي في مكتبه ومحكمته ، والتاجر في تجارته ، والزارع في حقله وحديقته . ويختلف أثره في نجاح حياة الفرد باختلاف نوع المهنة التي يقوم بها ؛ فأثره في مهنة التاجر مثلاً أقوى وأظهر منه في وظيفة عامل البريد . هذا إذا استعمل كل منهما ذكاءه في إجادة عمله ، ولكن الذكاء وحده غير كاف ما لم يؤازره خلق كريم متين . والتاريخ يثبت أن عظماء العالم ، والعصاميين المبرزين في الأعمال العامة ، قد امتازوا بالعقل الذكي ، والخلق القوي ، وأن من لم يتمتع منهم — إلى جانب الذكاء — بالخلق القويم ، قد رأى انهيار عظمته المؤقتة قبل وفاته .

وفي الحياة اليومية يساعد الذكاء على التهيؤ الخلقي المناسب . فالذكي يعرف الظروف المحيطة به بسرعة ، ويدرك ما تتطلبه هذه الظروف ، ويعرف أيضاً قانون بيئته الخلقي والاجتماعي ، فيتهيأ بلباقة ، ويتكيف بمهارة وقدرة ليناسب بين تصرفاته وبين بيئته وفقاً لقانونها الخلقي الاجتماعي المعتمد ، بعكس الغبي أو قليل الذكاء الذي لا يدرك بسرعة — أو مطلقاً — العلاقات بينه وبين الأحوال الطارئة عليه ، أو بينه وبين القانون الخلقي ، فتصدر تصرفاته عن خطل وحمق ، ويحاول العمل في تخبط .

وقد يكون ذكاء المرء مصدر شقائه وفساد أخلاقه ، فيجعل منه ثائراً على نفسه وعلى المجتمع ، أو لصاً ماكراً ، أو مجرماً غادراً . ويحدث ذلك في الغالب إذا كثرت حاجات الفرد ومطالبه ورغباته ، ولم يقو إنتاجه المادي المحدود ، أو لم تساعده البيئة ، على الوفاء بهذه الحاجات والرغبات ، فهو إما أن يضحي بهذه المطالب ويكبت هذه الرغبات ويكون حينئذ عرضة للنوبات العصبية والاضطرابات النفسية ، وإما أن يلجأ إلى تحقيق هذه المطالب وتلبية الرغبات بطريق غير مشروع ، فيحتال ويسرق ويغش ، ويصطنع كل السبل التي يصل بها إلى غايته ويفلت من عقاب القانون . وقد يخونه ذكاؤه فيقع في يد القضاء ، ويلاقي الجزاء . ثم يعود سيرته الأولى بعد الجزاء ، ويستميغ هذا النوع الجديد من حياته الشريرة . لأنه سقط فهوى ولم يجد من ينقذه بمعرفة سبب الجرم ؛ فإن كان في نفس المجرم حاول إزالته وتوجيهه إلى الصالح المنتج المفيد ، وإن كان في البيئة عمل على محوه وخلق تناسب بين البيئة وبين الفرد . ولذلك نجد في السجون الأوربية معاهد للتثقيف والإصلاح ، ولتعليم الفنون والصناعات المختلفة كالزراعة ، والتجارة والطباعة ، والحياكة الخ حتى يجد السجين أمامه بعد مغادرة السجن وسائل الحياة التي تتناسب مع ذكائه . والتي تساعده على

(١) يجد القارئ معظم الأبطال المجرمين في روايات إدجار والاس من الأذكياء كما في رواية The Dark Eyes of London ورواية The Bregand

كسب ما يحقق رغباته فيتجه بذلك ذكاؤه اتجاها مستقيماً صالحاً ويتحقق المثل السائر « السجن مدرسة وتهذيب وإصلاح »

وقد لاحظ علماء القيادة المهنية Vocational Guidance أن أكثر العمال فى المصانع تذمرا ، والموظفين فى الشركات طمعاً هم أولئك الذين وضعوا فى مهنة أو وظيفة دون مستواهم الذكاوى ، فيكون هؤلاء دائماً مصدراً للمؤامرات ، وتدبير الإضراب ، والخروج على النظام . وكذلك وجدوا أن قليلى[1] الذكاء أو الأغبياء إذا ما وضعوا فى مناصب ذات تبعة وفوق مستواهم الذكاوى ، قصر ذكاؤهم دون القيام بتبعاتهم، فيمروهم الاضطراب والهم، وينغمسون فى الشهوات والملاذ غير المشروعة ، ويسرفون ، وتكون عاقبتهم الجنون . فعدم التناسب بين الذكاء وبين العمل الذى يقوم به الفرد قد يقود لا إلى فساد فى الأخلاق فحسب بل إلى الأمراض العصبية والجنون

أنفق البروفسور سِرِل بِرْت ، رئيس معمل علم النفس وأستاذ المادة بجامعة كوليدج فى لندن ، ست سنوات يفحص فيها سيكلوجيا الأطفال المتمردين Delinquents ويقيس ذكاءهم . وقد قاس ذكاء ما يزيد على مائة ممن تتراوح أعمارهم بين ست سنوات وخمس عشرة ، وكان هؤلاء الأطفال يمثلون كل أنواع البيئات المختلفة فى لندن ، وقد أرسلوا إليه لارتكابهم بعض الذنوب الاجتماعية كسرقة بخس الأشياء ، وكالشحاذة والاعتداء على المارة أو على زملائهم بقذف الأحجار ، وكإتلاف مال الغير ، والسقوط الجنسى ، وخروجهم عن طاعة آبائهم . وقد وجد أن متوسط العمر الزمنى لهؤلاء الأطفال المتمردين هو ١٣ر٢ بينما كان متوسط عمرهم العقلى هو ١١ر٣ . وقد استنبط من هذه النتيجة « أن الأطفال المتمردين ينقص عمرهم العقلى عن عمرهم الزمنى بنحو سنتين[2] » ثم استنبط — بعد دراسة وإحصاء — أن « ٧ ٪ من هؤلاء الأطفال ضعاف العقول أو ناقصوها » feeble minded or defective . هذا وإذا علمنا أن نسبة ضعاف العقول بين جميع السكان — كما ثبت نظريا — هى ٢ ٪ اتضح لنا مقدار زيادة ضعاف العقول من الأطفال المجرمين والمتمردين . ويقول الأستاذ برت أيضاً[1] : « ولا يتعارض الذكاء الفائق مع التمرد ، ولكن المشاهدة تدل على أن وجوده بأية درجة بين المتمردين يعد نادراً »

ويرى الأستاذ فى كتابه « الطفل المتمرد[2] » أنه من الضروى أن ندرس الطفل المتمرد لا من ناحية ذكائه وضعفه العقلى فقط ، بل يجب أن ندرس بيئته ولا سيما المنزلية ، لأن حال الأسرة الوجدانية المضطربة ، وإهمال الطفل وترك حبله على غاربه ، كل هذا له من الأثر ما لضعف العقل فى إيجاد روح التمرد والإجرام عند الطفل . والفتاة البالغة التى لا تجد فى المنزل إلا شقاء وسوء معاملة تسرع إلى هاوية الفساد ، وبخاصة لأن ضعف عقلها يعرقل نجاحها فى الحياة الاقتصادية والعملية والاجتماعية فلا تعرف كيف تحل معضلاتها ، وتخلص من شقاء المنزل بطريق تضمن لها الحياة وشرف العرض

وقد أجرى الأستاذ لويس ترمان بعض التجارب لمعرفة العلاقة بين الذكاء والخلق وقارن بين مجموعة من الأطفال ذوى ذكاء مختلف الدرجات تبلغ ٥٣٣ ومجموعة أخرى مساوية لها من الأطفال النابغين ، ووجد أن المجموعة الثانية على خلق أسمى من الأولى فى صفات الصدق والأمانة والشفقة ويقظة الضمير ، كما وجدها تمتاز جداً بالمثابرة والإرادة القوية

من أجل هذا عنيت الأمم الأوربية والأمريكية بتعيين علماء نفسيين فى المحاكم ، وفى أقسام البوليس ، وفى مجالس التعليم الإقليمية والمدنية ، ليعينوا القضاة ورجال البوليس ورجال التعليم بدراسة الأطفال والكبار المتمردين[3] والمجرمين الذين يشك فى ذكائهم ومقدرتهم العقلية ، حتى يكون الجزاء مبنياً على ظروف الجريمة وحال المجرم العقلية . وفى لندن والمدن الأمريكية الكبرى — غير علماء النفس هؤلاء — عيادات سيكلوجية Psychological clinics يُرسل إليها المتمردون والمجرمون لفحصهم والتقرير عن حالهم .

(بخت الرضا — السودان) عبد العزيز عبد المجيد

(١) انظر كتاب الأستاذ ولم مكدوجل An Outline of Abnormal Psychology طبعة لندن سنة ١٩٢٦ م

(٢) انظر كتاب Mental and Scholastic Tests للأستاذ سرل برت طبعة سنة ١٩٢٣ م .

(١) صفحة ١٨٨ من هذا الكتاب

(٢) The Young Delinquent طبعة لندن سنة ١٩٢٥ م

(٣) أصبحت هذه الدراسة الآن داخلة ضمن علم النفس الجنائى